

شكري فيصل العالم الأديب الذي لم تنتصه أمتة

الكاتب : محمد مطعى الحافظ

التاريخ : 19 أغسطس 2014 م

المشاهدات : 8175



الدكتور شكري بن عمر فيصل علامة أديب بحاثة، أمين عام مجمع اللغة العربية بدمشق، ولد بدمشق بحي العقيبة (1337هـ/ 1918م). نشأ برعاية خاله العلامة الشيخ محمود ياسين، وفي مدرسته مدرسة التهذيب الإسلامي كان خاله مربياً وموجهاً

درس بالمدارس الرسمية ومكتب عنبر، ودرس خلالها على الشيخ أبي الخير الميداني، والشيخ محمد سليم الحلواني، وانتفع بخزانة خاله العاملة بالمؤلفات الجليلة. وبعد حصوله على الثانوية العامة التحق بكلية الآداب بالقاهرة وحصل على شهادتها سنة 1361هـ/1942م، واشتغل بمهنة الوراقة خلال دراسته، ثم انتسب إلى كلية الحقوق بدمشق وحصل على شهادتها سنة 1366هـ/1946م، وعيّن في لجنة تعديل برامج التعليم، ثم أوفد إلى القاهرة للتحضير للدكتوراه، فالتحق بها وعمل ملحاً ثقافياً لدى الجامعة العربية. وحصل على شهادة الماجستير سنة 1368هـ/1948م، ثم في السنة التالية نال دبلوم معهد اللهجات العربية، وتقلد درجة الدكتوراه سنة 1371هـ/1951م، وعاد ليعمل في لجنة البرامج التعليمية وأستاذًا مساعداً في كلية الآداب، ثم صار أستاذًا سنة 1376هـ/1957م وأخذ يكتب في المجالات منذ شبابه، وانتسب إلى عصبة العمل العربي وصار يكتب في جريدة، ورشح نفسه للانتخابات النيابية عن مدينة دمشق سنة 1954م إلا أنه لم يحصل على الأصوات المطلوبة، وانتخب عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية ثم انتخب أميناً عاماً سنة 1392هـ/1972م، وعهد إليه برئاسة لجنة تاريخ ابن عساكر وطبعاته، وشارك في ندوات ومهرجانات كثيرة. ثم عُين بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة أستاذًا ومشرفاً على رسائل الدراسات العليا، وترك مؤلفات كثيرة منها: (الفنون الأدبية) و(مناهج الدراسة الأدبية) و(المجتمعات الإسلامية في القرن الأول) و(حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول) و(تطور الغزل من الجاهلية والإسلام) إضافة إلى دراسات كثيرة.

بعد هذا التعريف الموجز وبعد هذا العطاء الكبير والمفيد، كان كثيراً من عرفه وعاشره مخلصاً له ووفياً، ولا يخلو الإنسان من الحساد خاصةً لمن تميّز بمواهب أكرمه الله بها كالدكتور شكري. إلا أن الكثير من معاصريه وصفوه بعبارات التقدير والوفاء والإنصاف ومنهم الشيخ علي الطنطاوي، الذي قال: (كان شكري فيصل عصامياً، خاض لجة الحياة قبل أن يستكمل عدّة خوضها، وجرب الطيران صغيراً قبل أن ينبع ريش جناحه، فما زال يضرب بهما يقوم ويقعد ويرتفع ويقع، حتى قوي الجناحان، وامتدّ قوادمهما، وقويت خوافيهما فعلاً وحلاً)، وقال عنه صديقه الدكتور عدنان الخطيب: (كان شكري فيصل أدبياً موهوباً، وناقداً قوياً العارضة، بالغ الحجة، واضح التعبير، سهل المفردات). وقال الشيخ محمد بن لطفي الصباغ: (فارس من فرسان الكلمة، وعلم من أعلام الأدب، وجمعى نشيط معروف). وقال الأديب عبد الغني العطري: (شكري فيصل نجم ساطع في سماء الأدب، كوكب متألق في عالم الفكر، وليل على دوحة الضاد، شعلة متوجحة وضاءة، علم شامخ وقمة في الأدب واللغة والأخلاق والتواضع).

بعد هذا الوصف من كبار معاصريه أحب أن أعرض فيما يأتي بعض ما رأيته منه من صفات قل أن نجدها في شخص واحد وذلك بعد اتصالي به في الجامعة، والمجمع، والبيت، والحي والسفر والغربة فقد كنت أولاً تلميذاً عنده، درست الأدب على يديه، وتعلمت تحقيق التراث بتوجيهاته وإرشاداته. واقتبس من أخلاقه وسلوكياته الشيء الكثير ثم أصبحت كأني واحد من أسرته وأهله، فكان يعاملني معاملة الصديق لا التلميذ، والمحب والمعظوف...

في مجمع اللغة العربية بدمشق:

كان شكري فيصل أستاذنا عضواً ممثلاً معمرياً عاماً معطاء، لم يترك أي مجال في سبيل رفع راية المجمع خفاقة في كل الأقطار العربية والأجنبية ممثلاً بحضوره المؤتمرات اللغوية وندوات التعرّيف، وعندما انتخبه المجمع أميناً عاماً له، شهد حركة غير عادية في نشر التراث، ظهرت في مطبوعات المجمع كتب كثيرة قيمة من أمهات كتب التراث، امتازت بعدها الكبير

ونوعيتها، فكانت مفخرة لعهده المبارك.

صفاته وأخلاقه:

إذا أردنا الحديث عن سلوكه الشخصي فإننا نجده قد تميز بأمور قل أن نجدها عند غيره. منها: بره بوالديه، ومنها وفاؤه - وهذا الخلق أصبح نادراً - وخصوصاً في هذا الزمن المتأخر، فقد خصّ أمّه التي ربّته وحاله الذي علّمه ووجهه، وخصّ أساتذته الذين علموه سواء في مكتب عبر أو في مصر بأفعال تدل على وفائه لهم قبل المقال.

ويجب أن لا ننسى تواضعه الذي تميز به وكان خلقاً عفويّاً فيه، عرفه عنه الناس كلّهم صغيرهم وكبيرهم، وكانت الابتسامة على وجهه الذي تقرأ فيه الطيب والبراءة والفطرة السليمة.

ومن صفاته المتميزة: الإثارة فقد شغلته هموم أمّته وواعتها عن نفسه، فكان دائم التفكير بسعادة أسرته ومن حوله من أهله وجيرانه وأصحابه خاصةً، ووطنه وأمّته عامةً.

ومن مميزاته رحمة الله أسلوبه الأدبيّ فمما لا شكّ فيه أنّ أستاذنا تميز بأسلوب خاص في الكتابة يشبه أن يكون الطابع عليه، بصفاته التي تأخذ القارئ في مدارج في البلاغة قلماً أتيحت لكثير من أهل العلم والأدب من أقرانه الذين لم يتمكنوا من موهبة الكتابة.

ويعرف المقربون من أستاذنا أن قلمه سيال، ينساب بين يديه، طبع لا يخذه متى شاء، يمتحن فيه من معين ثر، وذخيرة غزيرة، تسعفه الفكرة من جهة، وفي التعبير الجميلة المرصوفة بعضها إلى بعض من جهة أخرى.

ذلك أنه تخرج في فن الكتابة بمدرسة مجلة الرسالة ومجلة الثقافة، واطلع على تلك الأساليب ولاقت تلك الأساليب تربة صالحة أنبتت أسلوباً كأسلوب الدكتور شكري وأثمرت.

كان شكري فيصل علماً كبيراً، وقمة في الأدب واللغة والفكر والوطنية والأخلاق والتواضع والخلق الرفيع، مع المحافظة والتمسك بقيم الإسلام ومبادئه.

كان أستاذنا جامعاً مبدعاً، ومجمعياً خالداً، ومفكراً عبقرياً، أعطى الكثير لأمّته، تخرج على يديه أجيال، واستفاد منه الكثيرون، ووجه ورثي، وقدّم خدماته لمن يعرف ولم يُعرف.

كان بأسلوبه الأدبي ينطلق ليحقق ما يريده للأمة عن طريق العلم المفيد الذي ينهج النهج الإسلامي الصحيح، كان يبدأ هذا بنفسه وبأهله وبمن حوله من محبيه وتلامذته.

لهذا التميز والإبداع والخلق كثر حساده، وكلّما زادت مزايا المرء كلما كثر حساده، وكل صاحب نعمة محسود. وحاول حساده أن يفسدوا عليه حياته، فلم يقدروا، ولم يكن يلتفت إليهم، لأنّه لم يكن لديه وقت ينفقه في الترهات. ولكن الأمة لم تعرف قدره، ولم تعطه حقه من الوفاء والعرفان الجميل، وكاد فضله أن ينسى، وهذا بلا شك جحود ونكران للجميل، لأنّه بذل النفس والنفس في سبيل إسعاد الآخرين وتنقيفهم وتوجيههم وتربيتهم.

هذا جزء يسير مما يجب أن أذكره عن شمائل أستاذنا رحمة الله، ولا أجدني أوفي حقّه، ولا أقوم بجزء مما له على من فضل ومنّة، فما هذه إلا سطور وفاء أقدمها لروح أستاذي بيد خجل وقلب مضطرب، لعله يرضى عنّي وهو في سكينة مستقرّه الطاهر في بقى الغرق.

رحمك الله أباًها الشيخ الجليل، وأنسك في مثواك الذي نزلت، وأنزل عليك ساقع رضوانه، وغفر لك، ورفع منزلتك في الفردوس الأعلى.

صلاتي الشخصية به:

تَعُودُ صِلَتِي بالأستاذ الدكتور شكري فيصل رحمة الله إلى زمِنٍ بعيد، فقد امتلأت منه عيني عندما كان بين الحين والآخر يزورُ حيَّناً - حيَّ الْعُقْيَةِ - الذي نشأ فيه زمَنْ صباه، ليصل أرحامه، ويتصل بكتابِ أهْلِ الْعِلْمِ والْوَجَهَاءِ، كالشيخ أبي الخير

الميداني والشيخ عبد الوهاب الحافظ (دبس وزيت) والشيخ محمد سعيد البرهاني وآل الحلواني وغيرهم من الأعيان، وكان مَقْدُمه يلفتُ الأنظارَ حَقًا، ويُثِيرُ الانتباهَ إِلَيْهِ، بما كَانَ يلقى النَّاسَ بِالبَشَاشَةِ وَالْكَلَامِ الطَّيِّبِ الَّذِي كَنْتُ أَسْمَعُهُ مِنْهُ يَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ عَلَى اسْتِحْيَا، وَبِنَبْرَةٍ مَتَوَاضِعَةٍ لَمْ تَكُنْ لَتَقْلِيلًا مِنْ قَدْرِهِ بَيْنَ الَّذِينَ يَتَرَدَّدُ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَبَادِلُونَهُ الْوَدَ بِالْوَدِ، مَمْزُوجًا بِالاحترام.

فَلَمَّا وَجَدْتُنِي فِي جَامِعَةِ دَمْشِقَ، وَأَنَا فِي أَيَّامِي الْأُولَى فِيهَا طَالَعَنِي فَجَأًّا شَخْصٌ أَسْتَاذُنَا، فَخَفَقَ قَلْبِي لِمَنْزِلَتِهِ السَّامِيَّةِ فِي نَفْسِي، وَلَكِنْ عَادَ لِي رَوْعِي سَرِيعًا لِمَا أَعْرَفُ مِنْ شَمَائِلِهِ، فَتَقْدَمَتْ إِلَيْهِ أَحْيَيْهِ، وَسُرْعَانَ مَا رَحْبَ بِي، وَسَأَلَنِي عَنْ دِرَاسَتِي وَمَنْهَجِي فِيهَا، ثُمَّ دَعَانِي إِلَى بَيْتِهِ لِيَرْشِدَنِي إِلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثْلِي فِي دراسةِ الْأَدْبِ. وَسُرْعَانَ مَا نَشَأْتُ بَيْنِي وَبَيْنِهِ مِنْ دُونِ سَائِرِ الطَّلَابِ عَلَاقَةٌ كَانَهَا تَمَدُّدٌ مِنْ زَمْنٍ طَوِيلٍ، هَذِهِ الْعَلَاقَةُ مَتَّنَتْهَا الْأَيَّامُ، وَوَقَّتْتُ عَرَاهَا عَلَى صَفَرِ سَنِي وَقَدْرِي، وَعَلَى كَبِيرِ مَكَانِهِ وَسَعَةِ عِلْمِهِ وَفَضْلِهِ، وَوَجَدْتُنِي تَلَقَّاءَ رَجُلٍ أَخْذَتُ أَزْدَادَ إِكْبَارًا لَهُ كَلَّا امْتَدَتِ السَّنَوَاتُ، بِالْمَقَارِنَةِ مَعَ مَا كَنَا نَلَقَاهُ مِنْ جَفَاءِ بَعْضِ الْأَسَاتِذَةِ وَشَدَّتْهُمْ.

وَتَقْلَبَتِ الْأَيَّامُ، فَإِذَا بِي أَرْتَبِطُ بِهِ فِي كَثِيرٍ مِنِ الْمَنَاسِبَاتِ، وَإِذَا بِهِ يَشْجُعُنِي عَلَى الْعِلْمِ وَالْأَدْبِ وَالْتَّحْصِيلِ وَالْعَمَلِ مَا وَجَدَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، ثُمَّ شَاءَتِ الْمَقَادِيرُ أَنْ أَعْمَلَ فِي (مَجْمُوعِ الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ) بِتَزْكِيَّةِ مِنْهُ يَوْمَ كَانَ الْعَضُوُّ الْبَارِزُ الْمُنْتَجُ فِيهِ، وَأَمْيَنَهُ الْمَؤْتَمِنُ، فَشَدَّنِي إِلَيْهِ، وَضَمَّنَنِي إِلَى لَجْنَةِ تَحْقِيقِ كِتَابِ (تَارِيخِ مَدِينَةِ دَمْشِقَ) لِابْنِ عَسَكِرٍ، فَتَتَلَمَّذْتُ لَهُ فِي التَّحْقِيقِ وَأَصْوَلِهِ، وَتَعْلَمْتُ مِنْهُ أَشْيَاءَ لَمْ يَبْخُلْ بِهَا عَلَيَّ، وَأَفْدَتُ مِنْهُ كُلَّ الْفَائِدَةِ، وَدَفَعَنِي إِلَى عَالَمِ التَّأْلِيفِ وَالْكِتَابَةِ وَالْتَّحْقِيقِ... فَأَمْضَيْتُ فِي كُنْفِهِ سَنَوَاتٍ مُمْتَعَةً وَمُفَيِّدَةً، كَانَ فِيهَا تَفْتَحَى وَتَخْرُجَى.

ثُمَّ تَقْلَبَتِ بِهِ الْأَحْوَالُ رَحْمَهُ اللَّهُ بَعْدَ أَنْ أُحِيلَّ إِلَى التَّقَاعِدِ مِنِ الْجَامِعَةِ، فَعَانَى مِنْ حَسْدِ الْحَاسِدِينَ وَكِيدِ الْكَائِدِينَ، وَازْدَادَتْ مَصَابِهِ، فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ، وَكَانَ يَنْتَظِرُ الْفَرْجَ وَهُوَ يَقُولُ: انتِظَارُ الْفَرْجِ عِبَادَةٌ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْأَمْرُورُ أَخْذَتْ مِنْهُ هَدْوَعَهُ، وَنَزَعَتْ اسْتِقْرَارَهُ وَطَمَانِينِيَّتِهِ، فَأَثَّرَ ذَلِكَ فِي صَحَّتِهِ فَتَدَهُورَتْ، وَلَمْ يَكُنْ آنذاكَ قَدْ طَعَنَ فِي السَّنِّ، وَلَا أَوْغَلَ فِي الْعُمَرِ، وَلَكِنَّ الْهَمَّ يَخْتِرُ الْجَسِيمَ، وَيَهْزِلُ الْقَوَىَ، وَيَهْرِمُ الشَّابَ النَّشِيطَ.

لَمْ يَتَوَقَّفْ شَكْرِي فِي صَلْعَانِ الْعَمَلِ، وَكَانَ مَطْلُوبًا فِي الْجَامِعَاتِ كَلِّهَا، تَخْطِبُ وَدَهُ وَتَرِيدهِ، وَتَغْرِيهِ بِكُلِّ مَغْرِيَاتِهَا، وَجَفَاهُ مَنْ كَانَ يَدْعُى صَدَاقَتِهِ فِي سَاعَاتِ الْعُسْرِ، وَتَنَكَّرَ لِهِ عَارِفُوهُ، فَيَمْمَ وَجْهَهُ شَطَرَ مَدِينَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْتَاذًا لِلدِّرَاسَاتِ الْعُلَيَا فِي جَامِعَتِهِ الْإِسْلَامِيَّةِ، يَعْطِي – وَلَا يَتَوَقَّفُ عَنِ الْعَطَاءِ – بِكُلِّ مَا يَسْتَطِعُ، وَيَقِيَّ يَتَرَدَّدُ إِلَى دَمْشِقَ لِحَبَّ الشَّدِيدِ لَهَا، وَلِزِيَارَةِ أَرْحَامِهِ وَأَقْارِبِهِ.

وَفِي الْمَدِينَةِ الْمُنَورَةِ كَانَ لِقَائِيُّ الْأَخِيرِ بِهِ فِي بَيْتِهِ خَلَالِ مَوْسِعِ الْحَجَّ لِعَامِ (1404هـ / 1984م) وَكَانَ قَدْ أَخْذَ مِنِ الْإِعْيَاءِ مَأْخَذَهُ، وَأَشْفَقَتُ عَلَيْهِ، وَأَظْهَرَ لِي مِنِ الْمَوْدَّةِ وَالْتَّوَاضُعِ آنذاكَ مَا لَمْ أَجِدْ مِنْهُ مَثَلًا مِنْ قَبْلِهِ، وَشَعَرْتُ وَكَانَ هَذِهِ الْلَّقَاءُ لِقَاءً مَوْدَعًا، وَكُنْتُ أَكَدِّبُ ظَنِّي أَوْ أَطْلَبُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَكْذِبَ ظَنِّي.

وَفِي ذَلِكَ الْلَّقَاءِ كَتَبَ مَقْدَمَةً تَارِيخَ عَلَمَاءِ دَمْشِقَ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرِ الْهَجْرِيِّ، الَّذِي اشْتَرَكْتُ فِي تَأْلِيفِهِ مَعَ أَخِي وَصَدِيقِي الدَّكْتُورِ نَزَارِ أَبَاظَة... وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَوْلَى كِتَابَاتِهِ الْمُتَوَضِعَةِ.

وَصَعَقَنِي النَّبِيُّ الْمُؤْلِمُ، الَّذِي وَافَهُ أَهْلَهُ بِدَمْشِقَ يَنْعِي أَسْتَاذَنَا الْجَلِيلَ الَّذِي لَمْ يَحْتَمِلْ جَسْمُهُ مِبَاضِعَ الْجَرَاحِينِ السُّوِسِرِيِّينَ، وَتَوَقَّفَ الْقَلْبُ الْكَبِيرُ عَنِ الْخَفْقَانِ لِيَلِةَ السَّبْتِ (1405هـ / 17/11/1985م)، وَنُقْلَ مِنْ جَنِيفَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَورَةِ فِي (10/8/1985م) لِيَرْقَدْ بِجُوارِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ آمِنًا مَطْمَئِنًا مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسَنُ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا.

وَبَقِيَتْ ذَكْرَى الْأَسْتَاذِ الْجَلِيلِ تَسْرِي فِي عَرْوَقِي مَعَ دَمَائِيِّي، تَزَدَّادُ أَلْفًا يَوْمًا بَعْدِ يَوْمٍ، وَأَنَا أَنْذَكَرُ شَمَائِلَهُ الْعَطْرَةِ، وَأَخْلَاقَهُ الطَّيِّبَةِ، لَا يَغْيِبُ عَنِ عَيْنِي شَخْصُهُ الْمُحْبُوبِ، وَلَا تَبَدَّدُ طَلْعَتِهِ الْبَهِيَّةِ، وَلَا تَنْمَحِي بِسَمْتِهِ الْبَرِيَّةِ وَيَقِيَ فِي نَفْسِي أَنْمُوذِجًا.

يُحذى للعالم المخلص الصادق الغيور، والمربي الرؤوف، والصديق الصدوق، إذ كان علمًا شامخًا أبداً في كلّ مرحلة من مراحل حياته، وفي كلّ حال من أحواله، وفي كلّ شأنٍ من شؤونه.

دراستي للأدب على يديه:

لعم نجم أستاذنا في قاعات التدريس، وأقبل عليه الطلاب وأحبوه الحب الخالص، وأصفاهم وده، حتى قامت بينه وبينهم علائق لا تكون إلا بين الأساتذة المخلصين وطلابهم الأذكياء.

يوم كنا طلاباً في الجامعة نجدد بين يدي أستاذنا كنا نرى أنموذجاً من الأساتذة يختلف عن سائر الأساتذة الذين كنّا نهايهم لحزمهم، فلة قليلة من أساتذة الجامعة في الستينيات كانت تلقانا بما كان يلقانا به الدكتور شكري فيصل رحمه الله.

إذا سألت عن العلم فإنك واجده عنده، وإن فتشت عن المحبة تنزلت عليك منه، وإن رغبت في الأسلوب الممتع في التدريس وقعت عليه عنده، كانت دروسه في النقد والنصوص والتحليل الأدبي متعة خالصة، وهي بعد دروسه ليست بالهينة ولا السهلة، تحتاج إلى إعمال فكر، وإلى جهد، وإلى تذوق، وإلى أشياء أخرى، لم يكن الطالب يجدُها في كتاب، وإنما ربّاها فينا أستاذنا تربيةً، ونشأنا عليها تنشأةً، حتى بُرَزَ فينا ناسٌ كانوا صنيعاته، ترسّموا خطاه، وُعرفوا في الجامعات العربية.

ومنْ هنا أقبلَ عليه طلابه، جلسوا في قاعة درسه مرتاحين، فهموا من غير مشقة، وناقشوا دونَ خوف، وحفظوا على السجية، وأدّوا امتحاناتهم ببساطة – لم ترّعهم المفاجآت التي تطلع عليهم من بعض الأساتذة أو من جلّهم – ونحوها عن استحقاق ومكنته.

كان أستاذنا منفتحاً مع طلابه تمام الانفتاح، لم يقطّب في وجوههم، ولم يُسمعهم قارصَ الكلام، ولا عنفهم، ولا أساءَ إلى أحدٍ منهم، وما ارتفع صوته على أحدٍ، ولا هدّ طالباً، ولا أخزى طالبةً على الملا... فأقبلوا عليه، واعتّزوا بالانتساب إليه. كان درسه متميّزاً في كلِّ ما يقدم من مواد في النقد والبلاغة ودرس النصوص الجاهلية والإسلامية، فاستمتعنا بشعراءَ كثيرين، فمن طريقه عرفنا النابغة وليله، وأحببنا شاعرَ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُسَانَ بْنَ ثَابَتَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَحَبَّهُ ومديحه للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك من خلال تحليله لما قدم إلينا من نصوص.

كان يعالجُ النصوصَ معالجةً ذاتَ حياةً، ينفعُ فيها الحياةً فيبعثها من بطون الدواوين، وينثرها أمامَ الطلاب، فتتألق بين يديه وتتوهج، يقف عند المعاني المهمّة فيها، ثم يطرحُ أسئلةً حولها كثيرة... كثيرة جداً، لم نكن ندري كيفَ يستخلصُها أو يخترعُها... حتى إذا فرغت جعبته من الأسئلة، ولعلّها لا تفرغ عادٌ فأجاب عنها بما تستحقُ من تفصيلٍ أو إيجازٍ، مشيراً إلى النواحي الجمالية الفنية، يلقي عليها الضوءَ أو يقفُ عندها، ويُمْتَنِعُنا بها، فإذا بنا نراها بالعين التي لم نكن نراها بها، وإذا بنا نقدِّرُ النابغةَ ونخُرُّ بها، ونعتزُّ بحسان ونحبّه، ونعرفُ أقدارَ الشعراءِ ومنازلهم.

وتعرّضَ لنصوص عن الأصفهاني في كتابه (الأغاني) يغمز بها من قناة حُسَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيتهّمُه بالجُبْنِ والخَوْرِ، ويُسُوقُ نصوصاً كنّا نظنُّها – لقصر باعنا آذاك وقلة اطلاعنا، وحسنٌ ظننا بالأشبهاني وهو مَنْ هو؟! – أنها ممّا لا نقاشَ فيه، خصوصاً وأنَّ راويها صاحبُ الأغاني، يسوقُها بالسند على ألسنة الرجال.

وتوقف أستاذنا عند تلك النصوص، ونقدّها النقد العلمي، فتهاوت بين يديه وتفتّت، فبَيْنَ أن شعراءَ قريشٍ سكتوا للشعر حُسَانَ فآخرهم، وأنَّ شعره كان أشدَّ عليهم مِنْ وقْعِ النبال، وأنَّ سلاحَ الكلام والإعلام في المعركة كان أشدَّ من سلاح الحديد والعضلات... وأنَّ قريشاً كان تجتهد في قتل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِإسقاطِ الدِّينِ الجديد، وأرسلتُ إليه أكثر من مرة مَنْ يبتغي قتله وأنَّ حُسَاناً كان مطلوباً، وأنَّ قتله أهونُ من قتل النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بمراتٍ كثيرة، وهو إذ يُعرفُ ذاك فلا يكُفُ عن مقارعة أعداء النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنْ كان يهابُهم لسكتَ، وفتتحَ عن ميدان المعركة، ولكنه شفَى واشتفي، ودعا له الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونصبَ له منبراً في المسجد ينشدُ الناس، وقال: إنَّ جبريلَ معه يؤيّد ما نافحَ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وذكر أستاذنا رحمة الله أن الشجاعة كانت سمة الصحابة، وإن تفاوتوا بها، ليس فيهم جبان، ولم يكن الوسط آنذاك ليفرضى عن جبان يذهب بروحه. ولو كان في حسان جبن لما رضي عنه الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن دعا له أن يذهب عنه جبن، ولكن آفة كانت في يد حسان - فهو مقطوع العصب - لم تكن تمكنه من حمل السلاح.

وتقوم النصوص في نفوسنا بتلك الأطّر التي يضعها أستاننا فيها، فإذا بنا ننفعُ بها ونتفاعل، وإذا بنا نحسُّ بها إحساساً، فلما أحسّنا بمثله من قبل. ولأنّنا نرى النابغة يقفُ في سوق عكاظ تحت قبّته الحمراء يستمعُ للشعراء يحكّمونه في جديدهم، ولأنّنا به يقف بين يدي الملك النعمان، يمدحُه، فيستفيضُ في مدحه، أو يهابُه بعد ذلك فيهربُ، ويطولُ ليله فلا ينامُ فنشققُ عليه.

ويحلّلُ أستاذنا بطريقةٍ شيّقةٍ أسبابَ غضب النعمان على شاعره المجلّى، ويسوقُ أسباباً كثيرةً، فيرفضُ بعضَها، ويرجّحُ أخرى، مستعيناً بالنصوص التثريّة والشعرية والأخبار حتّى يقيّم في ذهننا ما يستقيّمُ للحجّة.

ومن أعظم ما اقتبسه بعضاً من أستاذنا الدكتور شكري أسلوبه في الكتابة التي كان يميلها علينا حينما يحلل النصوص ويدرسها. كانت الجمل بين يديه كالعجينة يقطّعها، ويكورها، ويمدّها، ويبسطها، لتكون جاهزة للخبز، وكالصلصال الطريّ يقوم به الفاخوريّ، يبدع منه كلّ آنية جميلة.

ولم يكن أستاذنا حين يملأ علينا يقرأ من كتاب، أو يطالع من دفتر، أو يقتبس من أوراق، وإنما كان يمتحن من ذهن وقادِر على إلسان قوله فصيحة، يهدرُ هدراً، لا يكاد يقفُ أو يتريث إلا من أجل أن نكتبَ نحن الطالبُ، الذين كلّت أصابعنا من الكتابة السريعة، فنخشى أن تفوتنا الكلمةُ مهمّة، أو جملةٌ مفيدة.

مع هذه المتعة، ومع هاتيك البشاشة، ومع ذلك الانبساط في المعاملة والحديث، لم يكن أستاذنا ليجانبَ الوقارَ والسيطرةَ على الدرس، وما كان يجرؤ طالبٌ أو طالبةٌ أن يتفوّه بكلمةٍ خارجةٍ عن الموضوع أو مُزاحٍ غير مقبول، أو تصرّف لا يليق، لأنَّ الجميع عرفوا أنَّ مع ذاك اللين قوَّةٌ هي قوَّةُ القادر المتمكن، حتى إنك لا تستطيع أن تسمع همساً.

ومن هنا كانوا إذا تحلّقوا حوله بعد انتهاء الدرس، ووافوه بما عندهم من أسئلة طرحوها بأدب جمّ، وأصواتٍ منخفضة، ووجوهٍ حبيبة .. واستمعوا للإجابة بكل اهتمام، وناقشوا بكل احترام.

ومن هنا تخرج معظمها حين تخرّجوا ليتسلّموا وظائفهم في الثانويات أو الجامعات، فكان كثير منهم يتمثّلون شخصية أستاذنا مع طلابهم، ويحاولون أن يكونوا مثله، يقتدون به. فكان منهم مدرّسون وأساتذة ناجحون.

وأيقنا جميعاً أنّ أستاذنا قبلَ أن يحمل لهم العلمَ، قدمَ لهم التربيةَ، ورَبَّ فيهم الخُلُقَ بحاله قبلَ مقاله). رحمة الله وجزاه عنا خير الجزاء.

د. محمد مطيع الحافظ

دبي 16 رمضان 1435هـ

15/7/2014

المصادر: